الفصل الثالث

من علامات صلاح السريرة وفسادها

إن صلاح السرائر وفسادها أمر لا يعلمه على وجه القطع إلا علاَّم الغيوب، ولكن الله ﷻ جعل علامات لصلاح السريرة وفسادها، تظهر على العبد يعرفها من نفسه، وتكون للناس بمثابة القرائن التي تعكس لهم سرائر الغير.

قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

وفي هذا الفصل سيكون الكلام عن بعض العلامات التي تدل على صلاح السريرة وعكسها يدل على فسادها، مع الانتباه إلى أن أحداً لا يعلم حقيقة السرائر إلا الله ﷻ، فقد يظهر بعض المظاهر الطيبة من شخص فاسد السريرة، وقد تظهر بعض المظاهر السيئة من شخص صالح السريرة ولكن هذا قليل، لأن الغالب أن صلاح الباطن يقود إلى صلاح الظاهر، وفساد الباطن يقود إلى فساد الظاهر.

ومن هذه العلامات ما يلي:

العلامة الأولى: الإخلاص والصدق:

يعد الإخلاص عمدة أعمال القلوب، وأساس صلاح السريرة، حيث إن جل الأعمال القلبية المحبوبة لله ﷻ تعود إلى صفة الإخلاص. إن قيمة الإخلاص ومكانته العظيمة تظهر في كون التفاضل بين الأعمال والثواب عليها عند الله ﷻ تكون على قدر الإخلاص وتحقيقه في الأعمال، وقد بَيَّن الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه هذه الحقيقة بقوله: (يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصيامهم. ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين)[1]. وسبق أن مر بنا قوله ﷻ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾ [الحج: ٣٧]. وإن ركعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من مئات الركعات من غيرهم، وقيام ليلة منهم أفضل من قيام الليالي الكثيرة من غيرهم، لما في عبادة الأنبياء من كمال التعظيم والإجلال والإخلاص

(١) الزهد، للإمام أحمد: (١٧١).

والخشوع ما ليس عند غيرهم. قال مطرف بن عبدالله: (إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صوماً وصلاة وصدقة والآخر أفضل منه بونا بعيداً، قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: هو أشدهما ورعاً عن محارمه)[1].

ويقول شيخ الإسلام: (والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها)[2]، وقال ابن المبارك: (رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية)[3].

والإخلاص عمل قلبي باعثه معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته، التي تثمر محبة الله ﷻ والخوف منه وتعظيمه ورجاءه واليقين بوعده ووعيده. فإذا تمكنت هذه الأعمال الجليلة من القلب قادته إلى العبودية الصادقة لله ﷻ وتوحيده لا شريك له، وأصبح الباعث لجميع الأعمال والأقوال والأحوال الظاهرة هو إرادة وجه الله ﷻ والدار الآخرة، وسلم من الأعراض الدنيوية التي تكون باعث بعض الناس إلى بعض

(١) الزهد، لابن أبي عاصم: (٢٤٠).
(٢) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦٠).
(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٧١).

العبوديات كقصد الرياء والسمعة والظهور بين الناس، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من آفات أخرى: كالكبر والعجب والحسد وغيرها، نسأل الله العافية من ذلك.

ولست هنا بصدد التوسع في مسألة الإخلاص وأدلته من الكتاب والسنة، فإن هذا قد كتب فيه الكثير من الكتب والرسائل، وإنما المقصود التأكيد على أهمية هذا العمل القلبي وأثره العظيم في صلاح السريرة وأثر ضعفه في فسادها، ولذا سيكون التركيز في هذا المبحث إن شاء الله تعالى على معرفة بعض علامات الإخلاص التي بدورها تقودنا إلى معرفة بعض علامات صلاح السريرة، ويحسن بنا قبل ذكر هذه العلامات ذكر بعض التعاريف التي تناقلها السلف عن الإخلاص.

وقد ذكر طائفة منها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الإخلاص إذ يقول: (وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص والصدق، والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق ﷻ بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك، و«الصدق» التنقي من مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه لا حظ للنفس فيه.

وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر)[1].

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٩٠-٩١).

ومن علامات الإخلاص التي يعرف بها العبد صلاح سريرته ما يلي:

أولاً: ابتغاء وجه الله ﷻ والخلوص من الرياء:

أثنى الله ﷻ على عباده المخلصين بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

ويتحقق الإخلاص في القلب بالتخلص من أعراض الرياء الثلاثة، ألا وهي:

١- جلب المصالح الدنيوية بعمله الأخروي.

٢- دفع المضار الدنيوية بعمله الأخروي.

٣- التعظيم والشهرة بين الناس وحب الثناء منهم.

وبتخلص العبد من هذه الأعراض يتخلص من آفة الرياء المسخوطة لله ﷻ. وإن أشد هذه الأعراض تخلصاً منها حب التعظيم والشهرة بين الناس، ولقد كان من دأب الصالحين مجاهدة النفس بالفرار من مدح الناس وتعظيمهم وكراهية الظهور بينهم.

وهذا من علامات المخلصين لربهم ﷻ، حيث يكفيهم علم الله ﷻ بهم، ورجاء ثوابه على أعمالهم، وأمثال هؤلاء تراهم يزهدون في مدح الناس والظهور فيهم، لا يبحثون عنها بل يكرهونها، ويودون أنهم في غبراء الناس، وأن أحداً لم يطلع على أعمالهم إلا الله ﷻ، ومع ذلك فيأبى الله ﷻ إلا أن يظهر أحوالهم، ويعلي ذكرهم وشأنهم بين الناس، ويضع حبهم في قلوب عباده.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[1].

وأسوق فيما يلي بعض النماذج من أحوال السلف في كراهتهم للشهرة والظهور.

حديث أويس القرني: عن زرارة بن أوفى، عن أسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أُويس. فقال: أنت أُويس بن عامر؟ قال: نعم. قال من مُرادٍ ثم من قَرنٍ؟ قال: نعم. قال: فكان بك بَرَص فبرأت منه إلا موضع

(١) صحيح مسلم: (٢٩٦٥).

درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدةٌ؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أُويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ، ثم من قَرَنٍ. كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضع درهم. له والدة هو بها بَرٌّ. لو أقسم على الله لأبَرهُ. فإن استطعت أن يستغفر لَكَ فافعل**» فاستغفر لي. فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتُبُ لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غَبْراء الناس أحبُّ إلى.

قال: فلما كان من العام المقبل حج رجلٌ من أشرافهم، فوافق عمر. فسأله عن أويس. قال: تركته رث البيت قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أُويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ، ثم من قَرَنٍ. كان به برصٌ فبرأ منه. إلا موضع درهم. له والدة هو بها بَرٌّ. لو أقسم على الله لأبَرهُ. فإن استطعت أن يستغفر لَكَ فافعل**» فأتى أويْسا فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح. فاستغفر لي. قال: استغفر لي. قال أنت أحدثُ عهداً بسفر صالح. فاستغفر لي. قال: لقيت عُمر؟ قال: نعم. فاستغفرَ له. ففطن له الناسُ. فانطلق على وجهه)[1].

(١) صحيح مسلم: (٢٥٤٢).

قال الشافعي رحمه الله تعالى: (وددت أن الخلق يتعلمون هذا العلم ولا ينسب إليَّ منه شيء)[١].

وعن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه كتب إلى أخ له: (واحذر حب المنزلة، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا)[٢].

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى قال: (لم يصدق الله من أحب الشهرة)[٣].

وكان خالد بن معدان رحمه الله تعالى (إذا عظمت حلقته قام وانصرف كراهة الشهرة)[٤].

وقال الزهري رحمه الله تعالى: (ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة. ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة حامى عليها وعادى)[٥].

---

(١) حلية الأولياء: (٩/ ١١٨).
(٢) المصدر السابق: (٦/ ٣٨٧).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ١٩).
(٤) مختصر منهاج القاصدين: (ص ٧٦).
(٥) المصدر السابق: (ص ٢٠٩).

obeikandl.com

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء[1].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى علاجاً لحب المدح وثناء الناس، فقال: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فاقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس واقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذلك الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه. وأما الزهد في

(١) المصدر السابق: (ص ٢١٠).

obeikandl.com

الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده)[1].

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على ما كتبه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في خطابه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه فيقول (وقوله: (ومن تزين بما ليس فيه شانه الله) لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه، عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدراً، ولما كان المخلص يُعجل له من ثواب إخلاصه الحلاوةُ والمحبة والمهابة في قلوب الناس عُجل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أنْ شانه الله بين الناس، لأنه شانَ باطنَه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحُسْنَى، وصفاته العليا، وحكمته في قضائه وشرعه.

هذا ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنُّسُك والعلم وغير ذلك قد نصب نفسه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها، فلابد أن تطلب منه، فإذا لم توجد عنده افتضح، فشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه.

(١) الفوائد: (١٥٠).

obeikandl.com

وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع. وأساس النفاق وأصله هو التزيُّن للناس بما ليس في الباطن من الإيمان، فعلم أن هاتين الكلمتين من كلام أمير المؤمنين مشتقة من كلام النبوة، وهما من أنفع الكلام وأشفاه للسقام.

وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر لله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم جزاء له من جنس عمله)[1].

ومما له صلة بكراهية الشهرة والظهور ما نقل عن بعض الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان من كراهيتهم للفتيا وتدافعهم لها بينهم. قال عبدالرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى: (أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أخاه كفاه ذلك. ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدعون العلم اليوم يقدمون على جواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع أهل بدر واستشارهم)[2].

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ١٦٨-١٦٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين: (١٦).

وذكر ابن القيم أن رجلاً رأى (ربيعة الرأي) يبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقال: (استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم. قال: ولبعض من يفتي هاهنا أحق بالسجن من السراق)[1].

ثم نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن بعض العلماء قولهم: (فكيف لو رأى ربيعة زماننا وإقدام من لا علم عنده على الفتيا وتوثبه عليها، ومد باع التكلف إليها، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها مع قلة الخبرة وسوء السيرة وشؤم السريرة)[2].

ومن دقائق حب الشهرة والظهور ما ذكره صاحب الإحياء، ونقله المقدسي من كتابه مختصر منهاج القاصدين، حيث يقول: (وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

(١) أعلام الموقعين: (٤/ ٢٠٧).
(٢) أعلام الموقعين: (٤/ ٢٠٧).

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العُبَّاد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه)[1].

ومن دقائق الإخلاص ما ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. إذ يقول (المسألة الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه)[2].

ويا لها من مسألة عظيمة يغفل عنها كثير منا، فإن من الإخلاص أن تكون دعوة المرء إلى الله وابتغاء وجهه، وليس إلى نفسه وتعظيم ذاته وإشهارها بين الناس، والتفاف الناس

(١) مختصر منهاج القاصدين: (ص ٢١٩).
(٢) كتاب التوحيد (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

حوله، وحب الصدارة بينهم، وعدم رؤية الخير في عمل الآخرين.

ومن دقائق الرياء ما ذكره ابن رجب رحمه الله تعالى بقوله: (وربما أظهروا بألسنتهم ذم أنفسهم واحتقارها على رؤوس الأشهاد، ليعتقد الناس فيهم أنهم عند أنفسهم متواضعون، فيمدحون بذلك وهو من دقائق أبواب الرياء كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء ويظهر منهم من قبول المدح واستجلابه مما ينافي الصدق والإخلاص. فإن الصادق يخاف النفاق على نفسه ويخشى على نفسه سوء الخاتمة فهو في شغل عن قبول المدح واستحسانه)[1].

ثانياً: المحبة لعمل الخلوة والخبيئة الصالحة:

وهذا من أبرز علامات الإخلاص وصلاح السرائر. فما زال المخلصون يحرصون على إخفاء صالح أعمالهم من غير الفرائض رجاء محبة الله ﷻ لهم وقبول أعمالهم عنده ﷻ، مستحضرين قوله ﷺ: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[2].

(١) فضل علم السلف على الخلف: (ص ٨).
(٢) مسلم: (٢٩٦٥).

obeikandl.com

وجاء عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح، كما أن لكم خبيئة من العمل السيء).

وقد كان ذلك هدياً بيناً للسلف الصالح، ومن ذلك قول الخريبي: (كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها)[1].

ويقول القرطبي عند قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

قلت: ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «**من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل**»[2]، فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه)[3].

يتحدث الأستاذ خالد روشة عن الخبيئة الصالحة فيقول: (زورق من ركبه نجا، وعبادة من اعتادها طهر قلبه وهذب

(١) سير أعلام النبلاء: (٩/ ٣٤٩).

(٢) مسند الشهاب: (١/ ٢٦٧)، والصحيح وقفه على الزبير بن العوام.

(٣) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٢٧).

obeikandl.com

نفسه وعودها الإخلاص، إنها العبادة في السر والطاعة في الخفاء، حيث لا يعرفك أحد، ولا يعلم بك أحد غير الله ﷻ، فأنت عندئذ تقدم العبادة له وحده غير عابئ بنظر الناس إليك، وغير منتظر لأجر منهم مهما قل أو كثر. وهي وسيلة لا يستطيعها المنافقون أبداً، وكذلك لا يستطيعها الكذابون لأن كلا منهما بنى أعماله على رؤية الناس له، وإنما هي من أعمال الصالحين فقط.

إن أعمال السر لا يثبت عليها إلا الصادقون، فهي زينة الخلوات بين العبد وبين ربه، ولكن في وقت قل فيه عمل السر، أو كاد أن ينسى، ينبغي على الحركة الإسلامية إحياء معناه، علماً وعملاً، وينبغي على شباب الصحوة الإسلامية تربية أنفسهم عليه.

وليعلم كل امرئ أن الشيطان لا يرضى ولا يقر إذا رأى من العبد عمل سر أبداً، وإنه لن يتركه حتى يجعله في العلانية، ذلك لأن أعمال السر هي أشد أعمال على الشيطان، وأبعد أعمال عن مخالطة الرياء والعجب والشهرة، وإذا انتشرت أعمال السر بين المسلمين ظهرت البركة وعم الخير بين الناس، وإن ما نراه من صراع على الدنيا سببه الشح الخارجي والشح الخفي، فأما الأول فمعلوم، وأما الثاني

فهو البخل بالطاعة في السر، إذ إنها لا تخرج إلا من قلب كريم قد ملأ حب الله سويداءه، وعمت الرغبة فيما عنده أرجاءه، فأنكر نفسه في سبيل ربه، وأخفى عمله يريد قبوله من مولاه، فأحبب بهذي الجوارح المخلصة والنفوس الطيبة الصافية النقية التي تخفي عن شمالها ما تنفق يمينها)[1].

وقد نقل الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى بعض أحوال السلف في إخفاء أعمالهم وذلك عند قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. فقال: (وقال عبدالله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فَقُه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما

(١) عن موقع (المسلم).

يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾)[1].

وإتماماً للفائدة أسوق مزيداً من النماذج المضيئة، التي تبين حرص سلفنا الصالح على حفظ أعمالهم وإخفائها عن الناس. فمن ذلك:

كان زين العابدين علي بن الحسين ينفق على أهل مئة بيت في المدينة، يأتيهم في الليل بالطعام، ولا يعرفون من الآتي به، حتى مات ففقدوا ذلك، فعرفوا أن ذلك منه، ووجدوا في ظهره أثراً من نقل الطعام إلى بيوت الأرامل)[2].

وكان ابن المبارك يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يُعرف، قال أحمد: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له)[3].

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٤) ط/ الشعب.

(٢) سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٩٣).

(٣) صفة الصفوة: (٤/ ١١٥).

obeikandl.com

وما جاء أن منصور السلمي صام أربعين سنة وقام ليلها، كان يبكي فتقول له أمه: يا بني قتلت قتيلاً؟! فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه، وخرج إلى الناس)[1].

وقال سفيان: (أخبرتني سرية الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سرًّا، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه)[2].

وقول سلمة بن دينار: (اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك)[3].

ويقول الشافعي رحمه الله تعالى: (ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من العمل الصالح فيما بينه وبين الله ﷻ، ولا يعتمد على العلم فقط، فإنه قليل الجدوى في الآخرة)[4].

(١) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٤٠٦).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٠٧).
(٣) المصدر السابق: (٣/ ٢٤٠).
(٤) العهود المحمدية: (١/ ٢٦٦).

وعن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه كتب إلى أخ له: (واحذر حب المنزلة، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا)[1].

وعن إبراهيم بن أدهم قال: (لم يصدق الله من أحب الشهرة)[2].

وقال ابن قتيبة: (حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرْض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء! فجاء رجل، فقال: استأذن لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب!)[3].

(١) حلية الأولياء: (٦/ ٣٨٧).
(٢) الحلية: (٨/ ١٩).
(٣) عيون الأخبار، لابن قتيبة: (١/ ٢٦٦).

ثالثاً: موافقة الباطن للظاهر وعدم مخالفة السريرة للعلانية:

وهـذه من صفات عبـاد الله المخلصين الذيـن لا يقولون ويفعلـون مـا يخالـف مـا في بواطنهـم وليسـوا مـن أهـل ذي الوجهـين الذيـن يلاقون هـؤلاء بوجـه وهؤلاء بوجـه آخر، لأن هـذا مـن صفـات المنافقـين الذيـن قـال الله ﷻ عنهـم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمـران: ١١٩]، وقـال عنهم أيضاً: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

فمن علامات الإخلاص مطابقة السريرة للعلانية، بل إن سريرة المخلصين أحسـن من علانيتهـم، كما جاء ذلك عن ابن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العـدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور)[1].

وأكثر ما يقع فيما يضاد هذه العلامة الحسنة من علامات الإخلاص بعض الوعاظ والمتنسكين الذين يظهرون التنسك والأمر بطاعة الله ﷻ أمام الناس، ثم يسـيئون فيما بينهم وبين

(١) تفسير الطبري: (١٣/ ١٦٣).

الله ﷻ، وقد حكى النبي ﷺ حال هؤلاء، فقال: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثوراً» قال ثوبان رضي الله عنه: صفهم لنا يا رسول الله! أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»(١).

والمخلصون من عباد الله ﷻ ليس هذا من شأنهم وليس من أخلاقهم، بل إنهم أسرع الناس إلى امتثال ما يأمرون الناس به من طاعة الله ﷻ، وأسرعهم إلى الانتهاء عمَّا ينهون الناس عنه من معصية الله ﷻ أمام الناس وفي خلواتهم.

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل كتابا إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما جميعاً قالا فيه: (من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك. أما بعد فإنا عهدناك وأمر نفسك لك. فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف

(١) رواه ابن ماجه: (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٥٠٢٨).

أنت عنـد ذلك يا عمر، فإنا نحذرك يومـاً تعنى فيه الوجوه، وتَجِـفُ فيه القلوب، وتنقطع فيـه الحجج لحجة ملك قهرهم بجبروته. فالخلق داخرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه. وإنـا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سـيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونـوا أخوان العلانية أعـداء السريرة، وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك والسلام عليكم.

فكتب إليهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيـدة ومعـاذ، سـلام عليكما. أما بعد أتـاني كتابكما تذكـران أنكما عهدتماني وأمر نفـسي لي فأصبحت قد وليت أمـر هذه الأمة أحمرها وأسـودها، يجلس بين يدي الشريف والوضيـع، والعـدو والصديـق، ولكل حصته مـن العدل. كتبتـما فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر! وأنه لا حول ولا قـوة لعمر عند ذلك إلا بالله عز وجل. وكتبتما تحذراني ما حذرت منـه الأمم قبلنا، وقديماً كان اختـلاف الليل والنهار بآجال النـاس يقربـان كل بعيد، ويبليان كل جديـد، ويأتيان بكل موعـود، حتى يصـير النـاس إلى منازلهم من الجنـة والنار،

كتبتما تحذراني أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا أخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بأولئك وليس هذا بزمان ذاك، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرهبة، تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصلاح دنياهم. كتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وأنكما كتبتما به نصيحة لي، وقد صدقتما، فلا تدعا الكتاب إليَّ فإنه لا غنى بي عنكما، والسلام عليكما)[1].

وقال حميد الطويل رحمه الله تعالى: (لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)[2].

وقال ابن الإعرابي: (أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد)[3].

ومن هؤلاء المخلصين الذين شهد لهم بمطابقة السريرة للعلانية الحسن البصري رحمه الله تعالى، فعن خالد بن

(١) الحلية، لأبي نعيم: (١/ ٢٣٨).
(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨).
(٣) شعب الإيمان، للبيهقي: (٦٩٨٧).

صفوان قال لقيت مسلمة بن عبدالملك فقال يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه)[1].

وهناك بعض الصور التي يترفع عنها صاحب السريرة الصالحة، لأنها من علامات مخالفة السريرة للعلانية، من هذه الصور:

إظهار الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع أن الأمر في الباطن خلاف ذلك، حيث يكون حب الدنيا قد تمكن من القلب وسافر في أوديتها وتفرق في شعابها.

إظهار الغيرة على الدين والحدب عليه، وأنه الهم الشاغل للنفس، مع أن هذا الادعاء لا يتعدى اللسان أو الكتابة، أما القلب فيكاد يفرغ من هذا الهم المدعى، لأنه قد امتلأ باهتمامات أخرى تسبق الاهتمام بالإسلام في سلم

(١) سير أعلام النبلاء: (٤/ ٥٧٦).

الأولوية. وهذه الصور عادة ما تظهر عند بعض الوعاظ أو الخطباء أو الكتاب، الذين يظهرون الحرقة والألم على الإسلام والمسلمين، والله أعلم بما في القلوب. فلننتبه لخطر هذه المناقضة، ولنحذر هذه الفتنة، فهي من صفات المنافقين التي ذكرها الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

مخالطة الكفار أو الظلمة والفسقة ومدحهم أو موافقتهم فيما يقولون ويعملون من مخالفات، ثم ذكرهم بالسوء بعد مفارقتهم، وهذا هو الذي كان أصحاب محمد ﷺ يعدونه من النفاق ويخافون منه.

إظهار المحبة والشفقة للناس وسلامة القلب نحوهم، مع تلبُّس القلب بأمراض كثيرة تناقض هذا الادعاء: كأمراض الحسد والحقد والشحناء وغيرها.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى صورة متكررة من صور مخالفة الظاهر للباطن، ألا وهي إظهار الغيبة للناس في قالب النصح والشفقة والديانة. يقول رحمه الله تعالى: (ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى.

تـارة في قالب ديانـة وصلاح، فيقول: ليـس لي عادة أن أذكر أحـداً إلا بخير، ولا أحب الغيبـة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحوالـه، ويقول: والله إنه مسـكين أو رجل جيد، ولكن فيه كيـت وكيت، وربما يقول: دعونـا منه، الله يغفر لنا وله. وإنما قصده اسـتنقاصه وهضماً لجنابه، ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادعون الله بذلك، كما يخادعون مخلوقاً، وقد رأينا منهم ألواناً كثيرة من هذا وأشـباهه... ومنهم من يخرج الغيبـة في قالب التعجـب، فيقول: تعجبت من فلان كيف لا يفعـل كيت وكيت؟ ومن فلان كيـف وقع منه كيت وكيت، وكيف فعل كيت وكيت؟! فيخرج اسـمه في معرض تعجبه. ومنهـم من يخرج الاغتمام فيقول: مسـكين فـلان. غمني ما جري له وما تم له، فيظن من يسـمعه أنه يغتم له ويتأسـف، وقلبـه منطو على التشـفي بـه. ولو قدر لزاد على مـا به. وربما يذكره عند أعدائه ليتشـفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلـوب والمخادعـات لله ولخلقه. ومنهم مـن يظهر الغيبة في قالـب غضب وإنكار منكـر، فيظهر في هذا الباب أشـياء من زخارف القول وقصده غير ما أظهر والله المستعان)[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٢٣٧-٢٣٨).

obeikandl.com

رابعاً: خوفهم من أن ترد أعمالهم الصالحة:

وذلك كما وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند الآية الأخيرة: (أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد عن عائشة ﵂ أنها قالت: يا رسول (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: (لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله ﷻ)[1]، وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه. وقال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم

(١) مسند أحمد: (٦/ ١٥٩).

(أولئك يسارعون في الخيرات)[1]، وقال الحسن: (يؤتون الإخلاص، ويخافون ألا يقبل منهم)[2].

وأخبار السلف في خوفهم من أن ترد أعمالهم الصالحة بسبب بعض المكدرات كثيرة، فمن ذلك:

عن تميم المقري قال: سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: (لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾)[3].

قول الربيع بن خثيم: (كل ما لا يُبتغى فيه وجه الله عز وجل يضمحل)[4].

وعن محمد بن مالك بن ضيغم قال: حدثني مولانا أبو أيوب قال: قال لي أبو مالك يوماً: يا أبا أيوب احذر نفسك على نفسك، فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي، وايْم الله لئن لم تأت الآخرةُ المؤمنَ بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران:

---

(١) تحفة الأحوذي: (٩/ ١٩)، وانظر المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير: (ص ٩١٦-٩١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٣/ ٨٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١٢/ ١٣٢).
(٣) تفسير ابن كثير: (٣/ ٧٩)، ط الشعب.
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٦١).

همّ الدنيا وشقاء الآخرة. قال قلت: بأبي أنت وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور وهو ينصَب لله في دار الدنيا ويدأب؟ قال: يا أبا أيوب فكيف بالقبول وكيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يَرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قُربانه، قد أصلح همّته، قد أصلح عمله، يجمع ذلك يوم القيامة ثم يضرب به وجهه)[1].

وقال العز بن عبد السلام: (قد يرى الإنسان اثنين فيظن أن أحدهما أفضل من الآخر، لما يرى من طاعته الظاهرة، والآخر أفضل منه بدرجات كثيرة، لما اشتمل عليه من المعارف والأحوال، والقليل من أعمال الأعرف خير من الكثير من أعمال العارف، وأين الثناء من المستحضرين لأوصاف الجلال وتعرُّف الكمال، من ثناء المسبحين بألسنتهم الغافلين بقلوبهم؟ ليس التكحل في العينين كالكحل)[2].

خامساً: الفرار من العجب وتزكية النفس:

وهذا من دأب المخلصين الذين يعرفون ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ويعلمون ويوقنون بأنه ﷻ المتفضل

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٦٠).
(٢) قواعد الأحكام: (٣٥٩).

عليهم بالإيجاد والإعداد والإمداد، وهو الذي أمدهم بالسمع والبصر والفؤاد وقد خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدرون على شيء، فمن أين يأتي العجب إلى هذه النفوس المعترفة بفضل ربها عليها في كل شيء والمعترفة بتقصيرها وآفاتها وعجزها، وأن الله ﷻ لو وكلها إلى أنفسها لضاعت وخسرت. ولذا نرى مثل هؤلاء المخلصين شديدي الاستعانة بالله ﷻ والتوكل عليه وحده ومتبرئين من الحول والقوة، فارين من العجب وأسبابه. وأخبارهم في ذلك كثيرة:

قال مطرف بن عبدالله: (لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً)[1].

وقال مسروق: (كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله)[2].

وجاء عن ابن حزم قال: (كانت فيَّ عيوب، ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب

(١) الحلية: (٢/ ٢٠٠).

(٢) الدر المنثور، للسيوطي: (٥/ ٤٧٠).

كلـه، ولم يبق والحمد لله أثر، بل كلفـت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع)[1].

وجـاء عنـه أيضـاً قوله: (مـن امتحن بالعجـب فليفكر في عيوبـه، فـإن أعجب بفضائلـه فليفتش فيـه عن الأخلاق الدنيـة، فإن خفت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلـم أنه مصيبة للأبد، وأنه أتم النـاس نقصاً، لأن العاقل من ميز عيوب نفسـه فغالبها، وسعى في قمعها، فإن أعجبت بآرائك فتفكر في سـقطاتك واحفظهـا، وإن أعجبت بخيرك ففكـر في معاصيك وتقصيرك، وإن أعجبـت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله)[2].

وعن أبي وهب المروزي: سـألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألت عن العجب قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك. لا أعلم في المصلين شيئاً شرًّا من العجب)[3].

(١) الأخلاق والسير: (٣٣، ٣٤).
(٢) رسائل ابن حزم: (١/ ٢٨٧).
(٣) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٠٧).

obeikandl.com

وللإمـام ابن القيم رحمه الله تعـالى كلام نفيس في علاج العجـب، وذلك في حديثه عن شـهود العبـد ذنوبه، وحكمة الله ﷻ في تخليتـه بـين العبـد والذنـب، إذ يقـول: (ومنهـا أن الله ﷻ إذا أراد بعبده خيراً أنساه رؤية طاعته ورفعها من قلبه ولسـانه، فإذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه ونسي طاعاته، وجعـل همّـه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامـه إن قام أو قعد أو غَـدَا أو راح، فيكـون هذا عين الرحمة في حقّـه. كما قال بعض السّـلف: إن العبـد ليعمل الذنـب فيدخل به الجنـة، ويعمل الحسـنة فيدخل بهـا النار. قالـوا: وكيف ذلك؟ قـال: يعمل الخطيئـة فلا تـزال نصب عينيه كلما ذكرهـا بكى وندم وتاب واسـتغفر وتـضرّع وأناب إلى الله وذلّ لـه وانكسر وعمل لها أعمالاً فتكون سـبب الرحمة في حقه. ويعمل الحسنة فلا تزال نصـب عينيه يمنّ بهـا ويراها ويعتدّ بها عـلى ربّه وعلى الخلق ويتكبّر بهـا ويتعجّب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونـه عليهـا، فلا تـزال هذه الأمـور به حتى تقـوى عليه آثارها فتدخله النار، فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه، وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره، والله المُستعان.

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه مُوجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلاً ولا له على أحد حقًّا فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه، فلا يظنّ أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرّم ما حرّم الله ورسوله، وإذا شهد ذلك من نفسه لم يرَ لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم إيّاها ويذمهم على ترك القيام بها، فإنها عنده أخسّ قدراً وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها، أو له عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدّم لأجلها، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه، فاستراح هذا في نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله، فما أطيب عيشه، وما أنعم باله، وما أقرّ عينه، وأين هذا ممّن لا يزال عاتباً على الخلق، شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط)[1].

سادساً: مجاهدتهم لهوى النفس وجعله تبعاً للحق:

وهذه العلامة من علامات الإخلاص تعد من أشق ما على نفوس المخلصين، إذ إن الهوى هو ميل النفس والطبع

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٣١٠).

إلى ما يهواه. ولا يتخلص منه إلا الصديقون من المؤمنين، ويحتاج التخلص منه إلى مجاهدة عظيمة ومراقبة دقيقة ويقظة شديدة للقلب وتقلباته، ومن مظاهره الخفية أنك قد تدخل في أمر تحسب أنك مخلص فيه وليس لك فيه هوى، فما تلبث أن يدخل الهوى وحظوظ النفس فيتغير كل شيء.

فعلى مريد الإخلاص أن يقوي إرادته ويخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى حتى تكون الجنة هي المأوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (أفضل الجهاد جهاد الهوى)[1].

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: (لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذاً أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق وتعاقب على ما تركته منه، لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين)[2].

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي: (٤١).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية: (١/ ٥٩٠).

وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن المعلمي رحمه الله تعالى في كتابه النفيس (التنكيل) مجموعة من الأسباب التي توقع في الهوى والتعصب ورد الحق وأهمها ضعف الإخلاص، ثم أعقبها بذكر صور من الهوى وصور من العلاج لهذا الهوى، أسوقها للقارئ الكريم مختصرة لفائدتها.

قال رحمه الله تعالى: (ومخالفة الهوى للحق في الاعتراف بالحق من وجوه:

الأول: أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحق يستلزم اعترافه بأنه كان على باطل، فالإنسان ينشأ على دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقاه من مربيه ومعلمه على أنه حق، فيكون عليه مدة ثم إذا تبين له أنه باطل شق عليه أن يعترف بذلك، وهكذا إذا كان آباؤه أو أجداده أو متبوعه على شيء، ثم تبين له بطلانه، وذلك أنه يرى أن نقصهم مستلزم لنقصه، فاعترافه بضلالهم أو خطئه اعتراف بنقصه.

الوجه الثاني: أن يكون قد صار له في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد.

الوجه الثالث: الكبر، يكون الإنسان على جهالة أو باطل فيجيء آخر فيبين له الحجة، فيرى أنه إن اعترف كان معنى ذلك اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترى من المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق يتبين له ببحثه ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بيَّن له.

الوجه الرابع: الحسد، وذلك إذا كان غيره هو الذي بين الحق فيرى أن اعترافه بذلك الحق يكون اعترافاً لذلك المبين بالفضل والعلم والإصابة، فيعظم ذلك في عيون الناس، ولعله يتبعه كثير منهم، وإنك لتجد من المنتسبين إلى العلم من يحرص على تخطئة غيره من العلماء ولو بالباطل حسداً منه لهم، ومحاولة لحط منزلتهم عند الناس...)[1].

ثم أخذ رحمه الله تعالى بعد ذلك يذكر بعض الصور التي تكون عند بعض أهل العلم ويكون دافعها الهوى والتعصب، فيقول: (.. فنجد ذا الهوى كلما عرض عليه دليل لمخالفيه أو ما يوهن دليلاً لأصحابه شق عليه ذلك واضطرب

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٠-١٨٢) باختصار.

واغتاظ وسارع إلى الشغب، فيقول في دليل مخالفيه: هذه شبهة باطلة مخالفة للقطعيات، وهذا المذهب مذهب باطل لم يذهب إليه إلا أهل الزيع والضلال...، ويؤكد ذلك بالثناء على مذهبه وأشياخه، ويعد المشاهير منهم ويطريهم بالألفاظ الفخمة، والألفاظ الضخمة، ويذكر ما قيل في مناقبهم ومثالب مخالفيهم، وإن كان يعلم أنه لا يصح أو أنه باطل، ومن أوضح الأدلة على غلبة الهوى على أكثر الناس -أنك تراهم- على أديان مختلفة ومقالات متباينة، ومذاهب متفرقة، وآراء متدافعة ثم تراهم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

فلا تجد من ينشأ على شيء من ذلك ويثبت عليه يرجع عنه إلا القليل، وهؤلاء القليل يكثر أن يكون أول ما بعثهم على الخروج عما كانوا عليه أغراض دنيوية..) [1].

واستمر في ذكر بعض صور اتباع الهوى، فقال:

(... افرض أنك قرأت آية فلاح لك منها موافقة قول لإمامك، وقرأت أخرى فلاح لك منها مخالفة قول آخر له،

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٠-١٨٢).

أيكون نظرك إليهما سواء؟ لا تبالى أن يتبين منهما بعد التدبر صحة ما لاح لك أو عدم صحته[1].

افرض أنك وقفت على حديثين لا تعرف صحتهما ولا ضعفهما، أحدهما يوافق قولاً لإمامك والآخر يخالفه، أيكون نظرك فيهما سواء، لا تبالي أن يصح سند كل منهما أو يضعف؟...

افرض أن رجلاً تحبه وآخر تبغضه تنازعا في قضية فاستفيت فيها ولا تستحضر حكمها وتريد أن تنظر. ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه...؟

افرض أنك تعلم من رجل منكراً وتعذر نفسك في عدم الإنكار عليه، ثم بلغك أن عالماً أنكر عليه وشدد النكير، أيكون استحسانك لذلك سواء فيما إذا كان المنكر صديقك أم عدوك، والمنكر عليه صديقك أم عدوك؟

---

(١) وقريباً من هذه الصورة ما ذكره البيهقي عمن يقتطع من النصوص ما يوافق هواه إذ يقول: (وهذا دأبه في نقل الأخبار ينقل ما يمكنه التعلق به ويدع الباقي ليوهم من نظر في كتابه أنه حجة له، ولا يفكر في نفسه أن المطلع على السرائر عالم بفعله وأنه ربما ينظر في كتابه من هو عالم فيطلع على تلبيسه، والله يعصمنا من أمثاله بفضله) القراءة خلف الإمام: للبيهقي (ص ٣١٣).

obeikandl.com

فتش نفسك تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلى به. فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساوياً لاستشناعك ما أنت عليه، وتجد مقتك نفسك مساوياً لمقتك إياه؟

وبالجملة فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى، وقد جربت نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أن لا هوى لي فيلوح لي فيها معنى، فأقرره تقريراً يعجبني ثم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنى فأجدني أتبرم بذلك الخدش وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررت ذلك المعنى أولاً تقريراً أعجبني صرت أهوى صحته هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلاً آخر اعترض عليَّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟

والواجب على العالم وطالب العلم أن يفتش عن هوى نفسه حتى يعرفه ثم يحترز منه ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق على هواه...)[1] أ.هـ.

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٦-١٩٨) باختصار وتصرف يسير.

وبعد هذا الكلام الجيد عن أسباب الوقوع في الهوى ورد الحق والتعصب للباطل، وبعد ذكر الأمثلة لذلك، يحسن ذكر بعض الوسائل المعينة على تجنب الهوى وقبول الحق.

إن الوقوع في الباطل والضلال بسبب الجهل يكون علاجه بالعلم والبصيرة في الدين. أما البقاء على الباطل بعد تبين بطلانه ورد الحق بعد ما تبين أنه الحق فإن علاج هذا المرض الخطير لا ينفع فيه العلم وإزالة الشبهة، لأن سببه الهوى وضعف الإخلاص والتعصب وليس الجهل والشبهة، ومثل هذا لا ينفع فيه إلا أن يذكر بتقوى الله ﷻ والخوف من عقابه ﷻ، كما يذكر بشرف الحق واتباعه والثواب العظيم الذي يكتبه الله ﷻ للمتبعين للحق والمؤثرينه على أهوائهم وشهواتهم، وفي ذلك يقول المعلمي رحمه الله تعالى: (هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكر فيها ويجعلها نصب عينيه.

يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في عظمة الله ﷻ وأنه رب العالمين، وأنه ﷻ يحب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان ﷻ وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه

خيراً له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع حتى يتوفاه راضياً مرضياً، فيرفعه إليه ويقربه لديه، ويجعله في جواره مكرماً منعماً في النعيم المقيم، والشرف الخالد، الذي لا يبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئاً من نعيم الدنيا فإنما ذلك لهوانه عليه ليزيده بُعداً عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لا تبلغه الأوهام.

يتدبر ما يرجى لمؤثر الحق من رضوان رب العالمين، وحسن عنايته في الدنيا والفوز العظيم الدائم في الآخرة، وما يستحقه متبع الهوى من سخطه ﷻ، والمقت في الدنيا والعذاب الأليم الخالد في الآخرة، وهل يرضى عاقل لنفسه أن يشتري لذة اتباع هواه بفوات حسن عناية رب العالمين وحرمان رضوانه والقرب منه والزلفى عنده والنعيم العظيم في جواره، وباستحقاق مقته وسخطه وغضبه وعذابه الأليم الخالد؟ لا ينبغي أن يقع هذا حتى من أقل الناس عقلاً، سواء أكان مؤمناً موقناً بهذه النتيجة، أم ظاناً لها، أم شاكاً فيها، أم ظاناً لعدمها...

يستحضر أن الذي يهمه ويُسأل عنه هو حاله في نفسه، فلا يضره عند الله تعالى ولا عند أهل العلم والدين والعقل أن يكون معلمه أو مربيه أو أسلافه أو أشياخه على نقص، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يَسلموا من هذا، وأفضل هذه الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم وكان آباؤهم وأسلافهم مشركين.

هذا مع احتمال أن يكون أسلافك معذورين إذا لم ينبهوا ولم تقم عليهم الحجة. وعلى فرض أن أسلافك كانوا على خطأ يؤاخذون به فاتباعك لهم وتعصبك لا ينفعهم شيئاً بل يضرهم ضرراً شديداً، فإنه يلحقهم مثل إثمك ومثل إثم من يتبعك من أولادك وأتباعك إلى يوم القيامة، كما يلحقك مع إثمك مثل إثم من يتبعك إلى يوم القيامة، أفلا ترى أن رجوعك إلى الحق هو خير لأسلافك على كل حال؟

يأخذ نفسه بخلاف هواها فيما يتبين له، فلا يسامحها في ترك واجب أو ما يقرب منه، ولا في ارتكاب معصية أو ما يقرب منها، ولا في هجوم على مشتبه، ويروضها على التثبت

والخضوع للحق، ويشدد عليها في ذلك حتى يصير الخضوع للحق ومخالفة الهوى عادة له.

يأخذ نفسه بالاحتياط فيما يخالف ما نشأ عليه، فإذا كان فيما نشأ عليه أشياء يرى أنه لا بأس بها، أو أنها مستحبة، وعلم أن من أهل العلم من يقول: إنها شرك أو بدعة أو حرام، فليأخذ نفسه بتركها حتى يتبين له بالحجة الواضحة صحة ما نشأ عليه، وهكذا ينبغي له أن ينصح غيره ممن هو في مثل حاله، فإن وجدت نفسك تأبى ذلك، فاعلم أن الهوى مستحوذ عليها فجاهدها)[1] أ.هـ.

• **العلامة الثانية: لصلاح السريرة:**

ترك ما لا يعني والانشغال بالنفس وإصلاحها عن الانشغال بعيوب الناس. وهذا من علامات صلاح الباطن، حيث إن صاحب السريرة الصالحة لا تراه إلا منشغلاً بنفسه وإصلاحها معرضاً عن عيوب الناس، فعنده من الإصلاحات لنفسه ما يشغله عن غيره. وتراه في إصلاح حاله مركزاً على

(١) التنكيل: (٢/ ١٩٠-٢٠٠) باختصار.

obeikandl.com

قلبه وسريرته ساعياً في إصلاح ما فسد منها باذلاً جهده في التخلص من الآفات التي تفسدها.

وهذا من علامات توفيق الله ﷻ لعبده المؤمن، ومن علامات الخذلان أن تجد العبد منشغلاً بعيوب الناس وآفاتهم ناسياً نفسه وآفاتها.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يفصل في حكمة الله تعالى في قضائه وتخليته بين العبد والذنب: (ومنها: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيب نفسه، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس. هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة)[1].

وقال في موطن آخر: (فمن عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس، من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه، أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق)[2].

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٣١٠).
(٢) الفوائد: (ص ٦٣).

obeikandi.com

وهـذا لا يعنـي ترك الأمـر بالمعروف والنهـي عن المنكر وإهمال دعوة الناس، وإنما المقصود أن لا تنسـيه دعوة الناس إصلاح نفسه والاهتمام بها ونسيان آفاتها الظاهرة والباطنة.

• **العلامة الثالثة: أصحاب السريرة الصالحة إذا رُؤوا ذُكِرَ الله ﷻ:**

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بخياركم**» قالوا بـلى. قال: «**الذين إذا رؤوا ذكر الله. أفلا أخبركم بشراركم**». قالـوا: بلى. قـال: «**المشـاؤون بالنميمة المفسـدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب**»(١).

وجـاء في الزهد لابن المبارك عن العلاء بن المسـيب عن أبي الضحى قال: سمعته يقول: (إن عباد الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين إذا رؤوا ذكر الله)(٢).

وهـؤلاء الذيـن تذكـر رؤيتهم ذكر الله ﷻ لاشـك أنهم المؤمنـون باطنـاً وظاهـراً الذيـن صلحت سرائرهـم، فألقى الله ﷻ النور والسـمت الحسـن عـلى ظواهرهـم ووجوههم، فأحبهـم النـاس، وذكـروا الله ﷻ برؤيتهـم، وهـذا مصداق

(١) انظر صحيح الأدب المفرد، حيث حسنه الألباني: (٢٤٦).
(٢) الزهد لابن المبارك: (٣/ ١٤٨).

قول الله ﷻ في وصفه لأصحاب نبينا محمد ﷺ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: سيماهم في وجوههم يعني السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع... وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار... وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته... فالصحابة خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم)[1].

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٣٤٢-٣٤٣) باختصار، ط الشعب.

obeikandi.com

وقال البقاعي رحمه الله تعالى في نظم الدرر: (سيماهم: أي علامتهم التي لا تفارقهم في وجوههم) ثم بين العلامة بقوله (من أثر السجود) فهي نور يوم القيامة. رواه الطبراني عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. هذا مع ما لهم من مثل ذلك في الدنيا من أثر الخشوع والهيبة، بحيث إنه إذا رئي أحدهم أورثت لرائيه ذكر الله، وإذا قرأ أورثت قراءته حزناً وخشوعاً وإخباتاً وخضوعاً، وإن كان رث الحال رديء الهيئة)[1].

وقال سيد قطب رحمه الله تعالى أيضاً عند هذه الآية: (... واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم، ونضحها على سماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف... فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً)[2].

(١) نظم الدرر: (١٨/ ٣٤٠).

(٢) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٣٣٢) باختصار.

وجاء في وصف حماد بن زيد رحمه الله تعالى عن أبي عاصم قوله: (مات حماد بن زيد يوم مات، ولا أعلم له في الإسلام نظيراً في هيبته ودله، أظنه قال: وسمته)[1].

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: (إنما يهابك الخلق على قدر هيبتك لله)[2].

وقال إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من بحضرته)[3].

• **العلامة الرابعة: تعظيم الله ﷻ وتعظيم حرماته والخوف منه:**

يقول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فمن علامات تقوى القلب وصلاح السريرة تعظيم شعائر الله وحرماته، وذلك بتعظيم أوامره بفعلها ونواهيه

(١) حلية الأولياء: (٦/ ٢٥٨).
(٢) الحلية: (٨/ ١١٠).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ٨٤).

باجتنابها، والمبادرة السريعة بالتوبة من الذنوب، والحياء من الله ﷻ، وهذا من علامة صحة المحبة لله تعالى، وضد ذلك الاستهانة بحرمات الله ﷻ، والجرأة عليها، وعدم الخوف والوجل عند تعديها، فإن هذا كله يدل على فساد في الباطن ومرض في القلب.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجا، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب. المتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل. وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه)[1].

(١) الجواب الكافي: (٩٩).

ويقول أيضاً: (على قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً... وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم، فذلك حقيقة الحمد، والله ﷻ أعلم)[1].

وقال هرم بن حيان لأويس القرني: أوصني. قال: توسَّد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئاً أشد عليك منهما، بينا قلبك معك ونيتك إذا هو مدبر، وبينا هو مدبر إذا هو مقبل، ولا تنظر في صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت)[2].

ومن علامات تعظيم حرمات الله ﷻ الدالة على صلاح السريرة: الغيرة على محارم الله ﷻ إذا انتهكت، والغضب لله تعالى حينما تتعدى حدوده، لأن هذا من شواهد محبته ﷻ، وفي ذلك يقول ابن عقيل في الفنون: (فأين رائحة الإيمان منك

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٩٥).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٥٥).

وأنت لا يتغير وجهك فضلاً عن أن تتكلم ومخالفة الله ﷻ واقعة من كل معاشر ومجاور، فلا تزال معاصي الله ﷻ والكفر يزيد، وحريم الشرع يُنْتَهك، فلا إنكار ولا منكر، ولا مفارقة لمرتكب ذلك ولا هجران له، وهذا غاية بَرْد القلب وسكون النفس، وما كان ذلك في قلب قطُّ شيءٌ من إيمان، لأن الغيرة أقل شواهد المحبة والاعتقاد)[1].

ويجلي الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه الحقيقة بقوله: (ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين، هم أقل الناس ديناً والله المستعان. وأيّ دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنْتَهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق؟ وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتُهم، فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المُتَحَزِّن المُتَلَمِّظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل

(١) الآداب الشرعية: (١/ ٩٥).

وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه. وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون، وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل)[1].

• **العلامة الخامسة: التصديق بالخبر والإذعان للأمر:**

وقد سبق ذكر هذا الوصف في مبحث تعريف السريرة الصالحة والقلب السليم في قول ابن القيم رحمه الله تعالى: (اعلم أن التسليم هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع)[2].

وهذه العلامة يعرفها العبد من نفسه، فإذا وجدها فليحمد الله تعالى، لأن هذا هو وصف القلب السليم والسريرة الصالحة وإن وجد ضد ذلك سواء من اعتراض على الخبر بشبهة، أو رد للأمر بشهوة فليبادر إلى إصلاح هذا الفساد

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ١٦٤، ١٦٥).
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١٤٧).

وتصفية القلب قبل أن يتمكن من القلب فيهلكه ويحق الخسران على صاحبه والعياذ بالله ﷻ. والتصديق بالخبر يعني التسليم لأخبار الله ﷻ، التي جاءت في كتابه ﷻ، أو على لسان رسوله ﷺ من الأخبار الماضية أو المستقبلية أو الغيوب، التي حجبت العقول عن إدراكها، فيؤمن بها، ويصدق بها دون أدنى شبهة أو اعتراض.

أما التسليم والإذعان للحكم فهو نوعان:

الأول: التسليم لأحكام الله الشرعية والإذعان لها، واليقين بأنها الخير والمصلحة سواء علمت الحكمة منها أم لم تعلم. قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

الثاني: التسليم لأحكام الله الكونية القدرية، واليقين بأن فيها الحكمة البالغة سواء ظهر ذلك للعقول أم لم يظهر، ولا يتعارض مع التسليم لأحكام الله القدرية، مدافعة ما

أمكن مدافعته منها، بل إن الله ﷻ أمرنا بمدافعة أقداره بأقداره: كمدافعة المرض بالعلاج والجوع بالأكل، فإن لم يأذن الله ﷻ بدفعها لحكمة يعلمها فيجب حينئذ التسليم والرضا بقدر الله ﷻ وقضائه، والحذر من أن يكون في القلب أدنى شبهة، من شأنها إساءة الظن بالله ﷻ، أو الاعتراض على حكمه فإن هذا من فساد السريرة.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (ذروة الإيمان: الصبر للحكم، والرضى بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب ﷻ)[1].

ومن لوازم الرضى والتسليم لأحكام الله ﷻ القدرية سلامة القلب من الغش والدغل والغل. وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن الرضى يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً نقيًّا من الغش والدغَل والغِل. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى. وكلما كان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش: قرين

(١) حلية الأولياء: (١/ ٢١٦).

السخط. وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضى. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى)[1].

• **العلامة السادسة: أداء الأعمال الصالحة وترك المنهيات، تعبداً لله ﷻ (محبة وخوفاً ورجاءً)، وليس من باب الإلف والعادة:**

إن استحضار معنى العبودية لله ﷻ حين أداء العمل الصالح شرط في قبوله، والحصول على ثماره اليانعة في الدنيا والآخرة، وحينما يصاحب العامل شعور العبودية لله ﷻ، فإنه يكون محافظاً على شروط صحتها وقبولها عند الله تعالى، وأهم هذه الشروط الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسول الله ﷺ، وكلما كان شهود معنى العبودية لله تعالى في الأعمال أقوى وأكمل كان ذلك دليلاً على قوة الإيمان في القلب وصلاح السريرة. وعندما يغفل العبد عن شهود العبودية لله تعالى في أداء الأعمال وترك النواهي، فإن باعث العادة والإلف هو الذي يغلب على أعماله، ومن ثم تضعف ثمار هذه الأعمال، وقد يخسرها عند الله ﷻ.

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٢٠٧).

obeikandl.com

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة التواضع: (التواضع بأن تخدم الحق ﷻ وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرى عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك. وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي وموافقة هوى ومحبة وعادة، بل الباعث مجرد الأمر. والرأي والمحبة والهوى والعوائد منفذة تابعة، لا أنها مطاعة باعثة، وهذه نكتة لا ينتبه لها إلا أهل البصائر)[1].

ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع. فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة لا لنهي الشرع... ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب، ويتوانون عن الفرائض... ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام، ويصعب عليه فراقه للعادة... وإن وقعت موافقة للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرأت، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة غالبة)[2].

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٨).
(٢) صيد الخاطر: (٢٣١).

ويشرح ابن القيم رحمه الله تعالى قول الهروي في منزلة التهذيب: (وهو على ثلاث درجات. الأولى: تهذيب الخدمة أن لا يخالجها جهالة، ولا يشوبها عادة، ولا يقف عندها همة).

فيقول في شرحه لقوله «لا يشوبها عادة»: (شوب العادة. وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم -مثلاً- وتمرن عليه. فألفَتْه النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء. فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية، وإنما هو تقاضي العادة.

وعلامة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته. كما حكي عن بعض الصالحين من الصوفية قال: حججت كذا وكذا حجة على التجريد، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظى. وذلك أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة ماء، فثقل ذلك على نفسي. فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجَّات كان لحظ نفسي وإرادتها. إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع)[1].

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٩٨، ٩٩).

مثالان من الواقع:

المثال الأول: رأيته بعيني وحز في نفسي، وذلك في أثناء رحلة من الرحلات الخارجية، سافرت فيها في سنة من السنوات من بلدي. وكان معنا بعض العوائل ومن بينهم أسرة من زوج وزوجة وابن لهما، وكانت المرأة قبل إقلاع الطائرة من بلدها محتشمة متسترة قد غطت وجهها وشعرها وسائر جسدها بخمار وعباءة، ولكنها ويا للأسف ما إن أقلعت الطائرة واستوت في الفضاء حتى لفت تلك العباءة ونزعت ذلك الخمار ودستهما في حقيبتها اليدوية، ثم أصبحت سافرة الرأس والشعر والوجه! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فعلى أي شيء يدل هذا، إنه يدل على رقة الدين وغياب التعبد لله ﷻ في تنفيذ أحكامه، وإنما هو العادة والإلف المنبتة عن العقيدة والخوف من الله ﷻ.

المثال الثاني: القيام ببعض الأنشطة الدعوية من باب الإلف والعادة: ويقع في ذلك كثير من شباب الدعوة والعاملين في الإغاثة والمناشط الدعوية المختلفة، حيث نرى الكثير منهم يبذل وقته وجهده ويتحمل في ذلك السهر والتعب والسفر

دون ملل ولا فتور نسأل الله ﷻ أن يثيبهم على ذلك. ولكن ما يجب التنبيه عليه هنا هو أن باعث الإلف والعادة والتلذذ لهذه الأعمال أفقدها عند بعضهم شهود التعبد لله ﷻ فيها، ومن الأدلة على ذلك أن يوجد من هؤلاء الشباب من هو مقصر جدًّا في خدمة والديه أو أحدهما، بحيث أصبحنا نسمع الشكاوى من الأب أو الأم تجاه أبنائهم الملتزمين، وبأنهم يتثاقلون في تلبية طلبات والديهم ولو كان في أمر يسير كإحضار حاجة للبيت، أو إيصال الأب أو الأم لزيارة قريب لهما، لا يستدعي أحياناً دقائق من الوقت. وهنا يقال: أين النشاط المتواصل والسهر والتعب في مناشط الدعوة، الذي قد يستغرق ساعات، بل أياماً دون ملل ولا تعب لماذا لم يحصل التثاقل هنا، وحصل عند حاجة الوالدين مع فارق الوقت الذي يكون في العملين؟ أليس كلاهما عبادة؟ بل إن عبادة بر الوالدين والإحسان إليهما لا يتقدمها إلا الواجبات الكبرى، وهي مقدمة على من دونها. والجواب على هذه المفارقة والله أعلم: أن باعث العمل الدعوي عند البعض تغلب عليه العادة والإلف وحظ النفس. وبر الوالدين وخدمتهما لم تتعود عليه النفس، ولا حظ لها فيه، فصار ثقيلاً.

obeikandi.com

• **العلامة السابعة: صاحب السريرة الصالحة متواضع للحق والخلق، وهو يألف ويؤلف:**

يصف الرسول ﷺ المؤمن بقوله: «**المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»(١).

وقال أيضاً: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار؟! تحرم على كل قريب هين لين سهل**»(٢).

ويبين ابن القيم رحمه الله تعالى بعض صفات الصديقين، فيقول: (فإذا تمكن العبد في حاله، وصار له إقبال على الله، وجمعية عليه -ملكةً ومقاماً راسخاً- أنس بالخلق وأنسوا به، وانبسط إليهم وحملهم على ضَلَعهم وبطء سيرهم. فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشر، ويسهل له ما توعَّر على غيره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء، وما ثقل أحد على

(١) مسند أحمد: (٨٨٣١)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) الترمذي في صفة القيامة، باب (٤٥)، وقال هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٠٢٢).

obeikandi.com

قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفاً. فترى الصادق فيها من أحلى الناس، وألطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع، وصار روحانيًّا سمائيًّا، بعد أن كان حيوانيًّا أرضيًّا فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وألطفهم قلباً وروحاً، وهذه خاصية المحبة، فإنها تلطف وتظرف وتنظف، ومن ظرف هذه الطبقة أن لا يظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام، ولا يواجهه إذ لقيه بالحال بل بلين الجانب وخفض الجناح وطلاقة الوجه فيفرش له بساط الأنس، ويجلسه عليه، فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة)[1].

والتواضع الذي هو من علامات السريرة الصالحة قسمان:

١- التواضع للحق وقبوله والانقياد له.

٢- التواضع للخلق وعدم التكبر والتعالي عليهم.

وقد بين ﷺ هذين القسمين بذكر ما يضادهما من نوعي الكبر، وذلك في قوله: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[2].

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) مسلم: (٩١).

وصاحب السريرة الصالحة لا تراه إلا منقاداً للحق مسلماً له مستسلماً، لا يعارضه بشبهات عقلية ولا شهوات قلبية.

كما أنه متواضع لعباد الله ﷻ، لا يرى له فضلاً عليهم، ولا يحتقرهم، فضلاً عن أن يتفاخر أو يتعالى عليهم. ومن تواضعه لهم قبول معذرة من أساء إليه منهم، ولو كان في عذره خلل.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن التواضع يتولد من بين العلم بالله ﷻ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها.

فيتولّد من بين ذلك كله خلقٌ هو التواضع، وهو: انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلقٌ إنما يُعطيه الله ﷻ من يُحبُّه ويُكرمه ويُقرِّبه)[1].

(١) الفوائد: (١٥٧، ١٥٨) باختصار.

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن صور التواضع للدين والحق، فيقول: (التواضع للدين: هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان. وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين من أهل الكبر من المتكلمين، الذي عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وعزلنا النقل. إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل.

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر. قدموا الذوق والحال، ولم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع التخلص من ذلك كله)[1].

نماذج من تواضع السلف للحق ووصاياهم في ذلك:

ما كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في كتابه المشهور في القضاء، وفيه: (... ولا يمنعك من قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك: أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم، ولا يبطل الحق شيء، وإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل)[2].

وعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه قال: (أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن علمني كلمات جوامع نوافع. فقال له عبدالله: لا تشرك به شيئاً، وزُل مع القرآن حيث زال،

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٤٧).
(٢) سنن الدارقطني: (٤/ ٢٠٦).

obeikandl.com

ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فارده عليه وإن كان حبيباً قريباً)[1].

وقال الذهبي: وفي (مسند الشافعي سماعًا): أخبرني أبو حنيفة بن سماك، حدثني ابن أبي ذئب عن المَقْبُري عن أبي شُريح أن رسول الله ﷺ قال: «**من قُتل له قتيلُ فهو بخير النَّظَرَيْن: إن أحب أخذ العقل، وإنْ أحب فله القَوَدُ**»[2].

قلتُ لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري، وصاح كثيراً، ونال مني، وقال: أحدِّثك عن رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به؟ نَعَم آخذُ به، وذلك الفرض عليَّ، وعلى كل مَن سمعَه. إن الله اختار محمداً ﷺ من الناس فهداهم به، وعلى يديه، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك)[3].

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنَّة رسول الله ﷺ فقولوا بها، ودعُوا ما قلتُه[4].

(١) صفة الصفوة: (١/ ٤١٩).
(٢) رواه البخاري بلفظ قريب: (٦٨٨٠)، ومسلم: (١٣٥٥).
(٣) رواه أبو داود: (٤٥٠٤)، وأصله في البخاري: (٦٨٨٠)، ومسلم: (١٣٥٥).
(٤) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٣٤).

وعنه أيضاً: وسمعتُه يقول: وقد قال له رجل: تأخذُ بهذا الحديث يا أبا عبدالله؟ فقال: متى رَوَيتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ولم آخُذْ به، فأشهدكم أن عقلي قد ذَهب[1].

وقال الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً، فقلتُ: أتأخذُ به؟ فقال أرأيتني خرجتُ من كنيسة، أو عليَّ زُنَّارٌ، حتى إذا سمعتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به؟![2].

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: أي سماء تُظلني، وأيُّ أرض تقلني إذا رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقُل به[3].

وعن الشافعي قال: ما كابرني أحدٌ على الحق ودافع إلا سقَطَ من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته)[4].

ويحكي ابن رجب رحمه الله تعالى أن ذلك كان هدياً لعامة أئمة السلف، فيقول: (كان أئمة السلف المجمع على علمهم

(١) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٣٤).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق: (١٠/ ٣٥).
(٤) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٣٣).

وفضلهم، يقبلون الحق ممن أورده عليهم، وإن كان صغيراً، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم)[1].

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على قوله ﷺ في دعائه: «**وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا**» بقوله: (ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل، سأل الله ﷻ أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضا، ولهذا قال بعض السلف: لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق)[2].

وذكر محمد بن حارث في أخبار سحنون بن سعيد عنه، قال: كان مالك وعبدالعزيز بن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم ابن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز، فكان إذا سأله مالك وعبدالعزيز أجابهما، وإذا سأله ابن دينار وذووه لا يجيبهم، فتعرض له ابن دينار يوماً، فقال له: يا أبا بكر لم تستحل مني

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير: (ص ١٠).
(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٢٩).

مـا لا يحل لك؟ فقال له: يا ابن أخي وما ذاك؟ قال: يسـألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذويي فلا تجيبنا؟! فقـال: أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبـك؟ قال: نعم. قال: إني قد كبرت سـني ودق عظمي، وأنـا أخاف أن يكون خالطني في عقـلي مثل الـذي خالطني في بـدني، ومالـك وعبدالعزيز عالمان فقيهان إذا سـمعا مني حقًّا قبلاه، وإن سمعا مني خطأ تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

قـال ابـن حـارث: (هـذا والله الديـن الكامـل والعقـل الراجـح، لا كمـن يـأتي بالهذيـان، ويريـد أن ينـزل قوله من القلوب منزلة القرآن)[1].

نماذج من تواضع السلف للخلق:

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقـه قِربة ماء، فقلـت: (يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سـامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة. فأردت أن أكسرها)[2].

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ١٩٨).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

وولى أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة. فكان يحمل حُزْمة الحطب على ظهره. ويقول: طَرِّقوا للأمير[1].

وركب زيد بن ثابت مرة. فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه. فقال: مَه يا ابن عم رسول الله! فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا. فقال: أرني يدك. فأخرجها إليه فقبلها. فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ[2].

وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حللا، فبعث إلى معاذ حُلة مثمنة. فباعها واشترى بثمنها ستة أعبدٍ وأعتقهم. فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها. فعاتبه معاذ، فقال عمر: لأنك بعت الأولى. فقال معاذ: وما عليك؟ ادفع لي نصيبي. وقد حلفت لأضربن بها رأسك فقال عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك. وقد يرفق الشاب بالشيخ[3].

ومر الحسن على صبيان معهم كِسرَ خبز. فاستضافوه فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم،

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

وقال: اليد لهم. لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه[١].

ويذكر أن أبا ذرّ رضي الله عنه عَيَّر بلالا رضي الله عنه بسواده، ثم ندم. فألقى بنفسه، فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدِّي بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال[٢].

وقال رجاء بن حيوة. قوَّمت ثياب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه -وهو يخطب- باثني عشر درهما. وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة[٣].

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشي مشية منكرة. فقال: تدري بكم شريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك -لا كَثَّر الله في المسلمين مثله- أنا. وأنت تمشي هذه المشية؟[٤].

وعن علي بن ثابت قال: (ما رأيت الثوري في صدر مجلس قط إنما كان يقعد إلى جنب الحائط، ويجمع بين ركبتيه)[٥].

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) الحلية: (٦/ ٣٧٨).

وعـن مطرف قال: مـا مدحني أحـد إلا تصاغرت عليَّ نفسي[1].

وعـن رجاء بن حيوة قال: (سـمرت ليلـة عند عمر بن عبدالعزيز فاعتل السراج، فذهبت أقوم أصلحه فأمرني عمر بالجلـوس، ثم قام فأصلحه ثم عاد فجلس، فقال: قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز، وجلست وأنا عمر بن عبدالعزيز، ولؤم بالرجل إن استخدم ضيفه)[2].

وعـن كنانة بن جبلة السـلمي قال: قال بكر بن عبدالله: إذا رأيت من هو أكبر منك، فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك، فقل: سبقتُه إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضلٌ أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثته)[3].

---

(١) الحلية: (٢/ ١٩٨).

(٢) الحلية: (٥/ ٣٣٢).

(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٨).

obeikandi.com

• **العلامة الثامنة: محبة الخير لجميع المسلمين، والحرص على اجتماع الكلمة ونبذ الفرقة:**

المسلم الصالح السريرة صاحب القلب السليم لا ينطوي قلبه على غل أو غش أو حقد على أحد من المسلمين بل يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه ممتثلاً قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1]، ومقتضى هذا الحديث أن يكره لهم ما يكره لنفسه، يفرح لفرحهم ويحزن لمصابهم. وفي ذلك يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟ فقال: بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه، أو معنى هذا، فقال أحمد: ما أعقله من رجل)[2].

ومن لوازم حب الخير للمسلمين طهارة القلب من الحقد والحسد. والحسد مرض من أمراض القلوب الشائعة

(١) البخاري: (١٣)، مسلم (٤٥)، واللفظ للبخاري.
(٢) الفرق بين النصيحة والتعيير: (ص ٣٢).

بين الناس وحقيقته الاعتراض على قدر الله ﷻ، وحكمته في المنع والعطاء والشدة والرخاء. وماهية الحسد كراهية نعمة الله ﷻ على عبد من عباده، وتمني زوالها عن صاحبها. وللحسد غوائل وأخطار مهلكة للدين، ويدل على فساد في السريرة، وله أسباب عدة منها:

١- العداوة والبغضاء، وهو أشد أبواب الحسد.

٢- التعزز، وحاصله أن يثقل على الحاسد أن يترفع عليه المحسود في دنيا أو دين.

٣- التكبر واحتقار الغير، وتوقع انقيادهم ومتابعتهم له، فإذا أصابهم نعمة وارتفع حالهم خاف الحاسد أن ينقلب الحال عليه وينفض الناس عنه.

٤- المماثلة والمساواة، وهذه في العادة تكون بين الأقران في دنيا أو دين.

٥- الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كل منهما يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له على الانفراد بمقصوده.

٦- حب الرياسة وطلب الجاه والثناء، فينشأ الحسد من طالب ذلك لكل من يراه أو يسمع به ممن يساميه، أو يكون نظيراً له.

obeikandl.com

٧- خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، والفرح بالشرور عليهم[١].

والموفق من وفقه الله ﷻ، وأصلح سريرته، وطهرها من هذا المرض العضال، ووفقه للأخذ بأسباب علاج الحسد، وهي على قسمين:

الأول: قسم علمي: وهو مداواة الحسد بالعلم النافع لمرض الحسد، وهو الرضى بقدر الله ﷻ، وحكمته في منعه وعطائه وقسمه، والعلم بأن الحسد ضرر على صاحبه في الدنيا والآخرة، وأن المحسود لا يتضرر بحسد الحاسد، بل قد ينتفع.

الثاني: قسم عملي: وهو مداواة الحسد بالعمل النافع، وهو أن يكلف الحاسد نفسه نقيض قصده، فإن بعثه الحسد على ذم المحسود، فإنه يكلف لسانه المدح والثناء على المحسود، وإن حمله التكبر ألزم نفسه التواضع، والاعتذار إليه والدعاء له وبذل الأسباب في إيصال الخير له، وكبح الشر عنه.

(١) انظر: تصفية القلوب، يحيى بن حمزة اليماني: (ص ١٧٥-١٧٨).

obeikandl.com

ومن لوازم حب الخير للمسلمين المحبة لاجتماع كلمتهم، ولاسيما دعاتهم ومجاهديهم، يحب ذلك من قلبه، ويفرح به، ويسعى بقوله وفعله لجمع الكلمة ونبذ الفرقة، وقد ضرب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أروع الأمثلة في ذلك. وذلك في رسالته إلى تلاميذه، يأمرهم بجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وإصلاح ذات البين.

يقول رحمه الله تعالى: (وتعلمون من القواعد العظيمة -التي هي من جماع الدين- تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف. وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة...) إلى أن قال في الرسالة نفسها:

(وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي، فتعلمون رضي الله عنكم جميعاً: أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم

المسلمين -فضلاً عن أصحابنا- بشيء أصلاً، لا باطناً، ولا ظاهراً، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان، كل بحسبه.

ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول: مشكور، والثاني: أجره على الاجتهاد، فمعفو عنه مغفور له، والثالث: يغفر الله لنا وله ولسائر المؤمنين، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلان كان سبب هذه القضية، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب، ولا حول ولا قوة إلا بالله، بل مثل هذا يعود على قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة، وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف...) إلى أن قال رحمه الله في الرسالة نفسها:

(فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليَّ، أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي)[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٥١-٥٧) باختصار.

ومن لوازم محبة الخير للمسلمين واجتماع كلمتهم الدالة على صلاح السريرة نبذ التعصب والحزبية المقيتة، ولاسيما بين المنتسبين لعقيدة واحدة ومنهاج واحد. فلا ترى صاحب القلب السليم والسريرة الصالحة إلا محبًّا لكل داعية وجماعة، تدعو إلى الله ﷻ على بصيرة ولو لم يعرفهم، أو يلتقي بهم يفرح بأي باب من الخير يفتحه الله ﷻ على يد من كان من عباده، ويفرح بأي باب من الشر يغلق على يد من كان ذلك، يحبهم ويدعو لهم، ويعينهم إن كان قادراً على ذلك.

وعن الفرق بين التحزب الممدوح والتحزب المذموم يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب - أي تصير حزباً - فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل: التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو الباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف،

ونهيا عن الفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان)[1].

وإن ما سبق ذكره لا يعني ألا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات، كلا... فالخلاف - والله أعلم - أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والعقلية... إلخ، ولكن ليس كل اختلاف يوجب الفرقة والتنازع والتباغض، وأوضح مثال لذلك أن السلف رحمهم الله قد اختلفوا في كثير من المسائل،ومع ذلك كانت كلمتهم وقلوبهم مجتمعة ولم يتفرقوا، والكلام هنا منصب على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها، أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع، فإن خلافنا معهم أصيل ومتعين، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم ونتبرأ من بدعهم وضلالاتهم.

وإن الأمة - منذ عهد أصحاب النبي ﷺ - قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل، ولم يؤد هذا الاختلاف إلى الفرقة، وعندما دخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس، وفسدت

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٩٢).

بعض السرائر وصاحب ذلك جهل في مسائل الخلاف ما يجوز الخلاف فيها وما لا يجوز، أدى هذا إلى تحول الخلاف - الذي تحتمله الشريعة، وتسعه أقوال الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم - إلى عداوة وفرقة.

• **العلامة التاسعة: العدل والإنصاف:**

وهذه السمة الكريمة التي يعز وجودها في أكثر الناس اليوم، هي من أبرز صفات أهل القلوب السليمة والسرائر الصالحة، حيث إنه لا يوجد من هذه صفته إلا وهو من المعظمين لله تعالى في قلوبهم الخائفين منه المطيعين له في السراء والضراء على أنفسهم وعلى عباد الله عز وجل.

وصاحب القلب السليم، والسريرة الصالحة المخلص لله تعالى لا يُرى إلا عادلاً منصفاً، لا يبخس الناس حقوقهم ولا يجور عليهم، ولا ينسى خيرهم وبلاءهم، يتثبت في الأخبار، ولا يسارع بنقل الشائعات، يحب الخير للمسلمين، وينصف من نفسه ولا يكيل بمكيالين، رائده الحق يدور معه حيث دار.

ومن مظاهر العدل والإنصاف التي تدل على صلاح السريرة:

(أ) عدم قبول الأخبار والشائعات دون تثبت:

يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وفي تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: (قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لا تقل.

وقال العوفي عنه: لا تَرْم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[الحجرات: ١٢][1] أ.هـ.

والتثبت من الأخبار والأقوال يعني التثبت من الأمور الآتية:

* التثبت من الخبر المنقول فقد يكون كذباً وافتراءً.

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٩).

* وقد يكون الخبر صحيحاً، ولكن له ملابسات وظروف لم يذكرها الناقل، وبعد التثبت وتبين هذه الملابسات قد يظهر عذراً لأصحابها.
* وقد يكون الخبر بعد التثبت صحيحاً، وأنه لا عذر لأصحابه فيه، ولكن يظهر من التثبت أنه موقف خاص له ظروفه، وليس موقفاً عاماً ومنهجاً مطرداً، وإذا كان صاحب الخطأ عالي الهمة في العلم والدعوة والجهاد، احتملت له الهنات، وانغمر خطؤه في بحر حسناته.

والمقصود أن من لوازم العدل الذي هو من علامات الإخلاص لله ﷻ أن يتثبت فيما يقوله وينقله من الأخبار والأحكام، حتى لا يقع في ظلم العباد. ورحم الله الإمام ابن تيمية، حيث يقول: (والله يحب الكلام بعلم، وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم)[1].

(ب) العدل في نقد المواقف الخاطئة:

لا عصمة لبني البشر إلا للرسل عليهم الصلاة والسلام، وكما قال الرسول ﷺ: «**كل بني آدم خطاء**»[2] الحديث.

(١) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٩٦).
(٢) الترمذي: (٢٤٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٠٢٩).

obeikandl.com

وتكثر الأخطاء حينما يكون هناك عمل ونشاط، وبخاصة في ميادين الدعوة وكثرة النوازل والمفاجآت، والحاجة فيها إلى قرارات ومواقف سريعة. وحينئذ لابد لأهل الدعوة المباشرين له، والداعمين والمحبين له أن يقدروا هذه الظروف، وأن يحذروا العدوان في معالجة ونقد الأخطاء، وأن يجعلوا من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، والسلف الصالح قدوة صالحة في العدل والإنصاف.

والناس في موقفهم من الأخطاء ونقدهم لها ولأصحابها طرفان جائران ووسط عدل. وذلك حسب ما ينطوي عليه القلب من صلاح أو فساد.

الطرف الأول: أهل الغلو والإفراط:

وهم الذين أفرطوا في نقد الأخطاء وأصحابها، حتى جعلوا من الفروع أصولاً، ومن بعض الجزئيات كليات، وجعلوا همَّهم تصيد الأخطاء، والفرح بها وتضخيمها، ولم يرحموا من وقع فيها من المجاهدين وطلاب العلم، بل جاروا عليهم في ذلك حتى أساءوا الظن بهم، وبنواياهم،

ومقاصدهم، وبخسوهم حقهم، وأهدروا حسناتهم وما لهم من بلاء وجهاد ودعوة وعلم وعمل وتعليم.

ولا يخفى ما في هذا الموقف من عدوان، ومجانبة للعدل والإنصاف. وفي أمثال هؤلاء يقول الشعبي - رحمه الله تعالى -: (والله لو أصبتُ تسعاً وتسعين مرة، وأخطأت واحدة، لأخذوا الواحدة وتركوا التسع والتسعين)[1].

ولو أن هؤلاء المنتقدين حاسبوا أنفسهم، وسألوها حينما يخطئون: هل يودون أن يعاملهم إخوانهم بهذا المنهج الجائر، كما يعاملون غيرهم لكان في ذلك سبب لمراجعة أنفسهم، واكتشافهم لهذا المنهج الخاطئ في نقد الرجال ومعالجة الأخطاء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: (فليس من شرط أولياء الله المتقين أن لا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأً مغفورًا لهم، بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقًا، بل ولا من شروطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة.

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]. فقد وصفهم الله بأنهم متقون. و(المتقون) هم أولياء الله. ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوء الذي عملوا. وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان)[1].

ويعلق الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - على قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]. فيقول: (فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى، ولعله

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦، ٦٧).

لا يدري أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه علماً وعملاً، ودعوة إلى الله على بصيرة، وصبراً من قومهم على الأذى في الله، وإقامة الحجة لله ومعذرة لمن خالفهم بالجهل)[1].

وكما يحب المرء في الناس أن يعدلوا معه، فكذلك الناس يحبون أن يعدل معهم في تناول عيوبهم، وأسوق بهذه المناسبة تلك المحاورة النافعة التي بين فيها المسور بين مخرمة لمعاوية ابن أبي سفيان ﷺ بعض عيوبه، وماذا رد عليه معاوية في ذلك، لتكون منهجاً في معالجة أخطائنا.

عن عقيل، ومعمر، عن الزهري، حدثني عروة أن المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد على معاوية، فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله، لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب عليَّ. قال مسور: فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بينت له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تَعُدُّ لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب، وتترك الإحسان؟ قال: ما تذكر إلا الذنوب. قال

(١) بدائع التفسير: (٢/ ١٠٥).

معاويـة: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسـور ذنوب في خاصتك تخشـى أن تهلـكك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قـال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحق مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين: بين الله وبين غيره، إلا اخترت الله على ما سـواه، وإني لعلى دين يقبل فيه العمل، ويجزى فيه بالحسـنات، ويجـزى فيه بالذنوب إلا أن يعفـو الله عنهـا، قـال: فخصمني. قال عروة: فلم أسـمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه[1].

الطرف الثاني: أهل التفريط والإضاعة:

وهـؤلاء وإن كانـوا قـد فرطـوا في الأخـذ بالحـق ورد الباطل، ووقعوا في التقليد الأعمى، إلا إنهم وقعوا في المقابل في الغلـو في الرجـال، والتعصـب لأخطائهم، ولسـان حالهم يقول بالعصمة لمن قلدوهم.

ولذا ترى الواحد منهم يزعجه، ويكدر خاطره إذا قيل: إن شـيخه وأسـتاذه مخطئ في بعض ما ذهب إليه من قول أو عمل، ويدفعه تعصبه لشـيخه وغلوه في محبتـه له وتأدبه معه

(١) سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٥٠).

إلى تصحيح كل ما يقول أو يفعل، مبرراً ذلك بمبررات سامجة متكلفة.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في وصف أهل الطرفين السابقين بعد أن ذكر فضل أئمة الإسلام: (... وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله ﷺ لا يوجب قبول كل ما قالوه. وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم ما جاء به الرسول ﷺ فقالوا بمبلغ علمهم - والحق في خلافها - لا يوجب اطراح أقوالهم جملة، وتنقصهم والوقيعة فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما، فلا نؤثم ولا نعصم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في علي رضي الله عنه ولا مسلكهم في الشيخين رضي الله عنهما)[1].

وقال رحمه الله تعالى في معرض رده على الهروي رحمه الله تعالى في منازله: (هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها لكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ. وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس:

(١) أعلام الموقعين: (٣/ ٣٥٨).

إحداهما: حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار. وأساءوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: - وهو أهل العدل والإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد)[1].

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٢٢٠-٢٢٤) باختصار.

obeikandl.com

الموقف العدل والوسط المتوازن:

(وهـؤلاء هم أهل السرائر الصالحة) وهم الذين ذكرهم ابـن القيـم - رحمـه الله تعالى - في ما سـبق وسـماهم بالطائفة الثالثـة، حيث قـال عنهـم: (وهم أهـل العـدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلـم يحكموا للصحيح بحكم السـقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد)[1].

أي أنهـم لم يقعـوا فيـما وقـع فيـه أهـل الغلـو والإفـراط المضخمـين للأخطـاء، المهدريـن لحـق مـن وقـع منـه الخطأ، والمهدرين لحسناتهم، المتهمين لنياتهم، بل حفظوا لهم حقوقهم، ولم ينسـوا لهـم بلاءهـم وجهادهـم وحسـناتهم، ووضعـوا أخطاءهم في حجمها الذي تسـتحقه، ووازنوا بين حسناتهم وسـيئاتهم. وفي المقابـل لم يذهبـوا إلى تقديـس الأشـخاص، وادعـاء العصمـة لهم - سـواء بلسـان المقال أو الحـال - بل نظـروا للمخطئـين بأنهم غير معصومـين، ولم يدفعهم حبهم وأدبهـم مع شـيوخهم إلى تقليدهم في كل مـا يقولونه، أو أن يسحبوا ذيل الحسن على كل ما يفعلونه.

(١) المصدر السابق.

نماذج مضيئة من عدل السلف مع مخالفيهم:

النموذج الأول:

عن عبدالرحمن بن شُمَاسَة قال: دخلتُ على عائشة ﵂، فقالت: ممن أنت؟ قلتُ: من أهل مصر. قالت: كيف وجَدْتُم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منَّا فرسٌ ولا بعيرٌ إلا أبدلَ مكانه بعيراً، ولا غلامٌ ألا أبدل مكانه غُلاماً، قالت: إنه لا يمنعني قتلُه أخي أن أحدِّثكم ما سمعت من رسول الله ، إني سمعته يقول: «**اللهم من ولي من أمر أُمتي شيئًا فَرفَقَ بهم فارفُقْ به، ومن شَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه**»(١).

النموذج الثاني:

قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة)(٢).

(١) نزهة الفضلاء: (١/ ٣٢٧)، والحديث رواه مسلم: (١٨٢٨).
(٢) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ١٦).

obeikandl.com

النموذج الثالث:

عـن يونـس بن عبدالأعـلى قال: قـال لي الشـافعي: (يا يونـس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهـه، فإياك أن تبادره العداوة، وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشـك، ولكن ألقـه وقُلْ لـه: بلغني عنك كـذا وكذا، واحذر أن تسـمي له المبلِّـغ، فإن أنكر ذلـك فقل له: أنت أصـدق وأبر. لا تزيدن على ذلك شـيئًا، وإن اعترف بذلك، فرأيت له في ذلك وجهاً لعـذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنـك؟ فإن ذكر مـا له وجه مـن العذر فاقبل منـه، وإن لم تر لذلـك وجهاً لعـذر، وضاق عليك المسـلك، فحينئـذ أثبتها عليه سـيئة، ثم أنت في ذلـك بالخيار، إن شـئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى وأبلـغ في الكرم، لقول الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى: ٤٠]، فـإن نازعتك نفسـك بالمكافـأة، ففكّر فيما سـبق لـه لديك من الإحسـان، فعدهـا ثم أبـدر له إحسـاناً بهذه السـيئة، ولا تبْخَسـنّ باقي إحسانه السالف بهذه السيئة، فإن ذلك الظلم بعينه. يا يونس

إذا كان لك صديق فشد يديك به، فإن اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل)[1].

النموذج الرابع:

وقال الذهبي في ترجمته لمحمد بن نصر المروزي: (لو أنَّا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده ولا من هو أكبر منهما. والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة)[2].

النموذج الخامس:

قال الذهبي في ترجمة قتادة - رحمه الله تعالى -: (وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع، فإنه مدلس معروف بذلك، وكان يرى القدر نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله يعذُرُ أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) نزهة الفضلاء: (٢/ ١١٢٧).

حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل. ثم إنَّ الكبير من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابُه، وعُلمَ تحرِّيه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورعُه واتباعه، يُغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك)[1].

النموذج السادس:

رسالة الشيخ حمد بن عتيق إلى صديق حسن خان - رحمهما الله تعالى - وما فيها من العدل والإنصاف والأدب الجم بين أهل العلم - وإن اختلفوا - وهي رسالة طويلة اقتطف منها ما يلي:

(من حمد بن عتيق إلى الإمام المعظم والشريف المقدم المسمى محمد الملقب صديق زاده الله من التحقيق وأجاره في مآله من عذاب الحريق.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فالموجب للكتاب إبلاغ السلام والتحفي والإكرام، شيد الله بك قواعد

(١) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٢٧١).

الإسلام، ونشر بك السنن والأحكام. اعلم وفقك الله أنه كان يبلغنا أخبار سارة بظهور أخ صادق ذي فهم راسخ وطريقة مستقيمة، يقال له صديق فنفرح بذلك ونسر، لغرابة الزمان وقلة الإخوان وكثرة أهل البدع والأغلال، ثم وصل إلينا كتاب الحطة وتحرير الأحاديث في تلك الفصول، فازددنا فرحاً وحمدنا لربنا العظيم لكون ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. وكان لي ابن يتشبث بالعلم ويحب الطلب، فجعل يتوق إلى اللحوق بكم والتخرج عليكم والالتقاط من جواهركم، لذهاب العلم في أقطارنا وعموم الجهل وغلبة الأهواء. فبينما نحن كذلك إذ وصل إلينا التفسير بكماله فرأينا أمراً عجيباً ما كنا نظن أن الزمان يسمح بمثله وما قرب منه، لما من التفاسير التي تصل إلينا من التحريف والخروج عن طريقة الاستقامة، وحمل كلام الله على غير مراد الله، وركوب التفاسير في حمله على المذاهب الباطلة، وجعلت السنة كذلك، فلما نظرنا في ذلك التفسير تبين لنا حسن قصد منشيه، وسلامة عقيدته، وتبعده من تعمد مذهب غير ما عليه السلف الكرام. فعلمنا أن ذلك من قبيل قوله ﷻ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً كما يحب ربنا ويرضى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فزاد اشتياق التائق وتضاعفت رغبته، ولكن العوائق كثيرة والمثبطات مضاعفة، والله على كل شيء قدير فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس. فمن العوائق تباعد الديار وطول المسافات، فإن مقرنا في فلج اليمامة، ومنها خطر الطريق وكثرة القطاع وتسلط الحرامية في نهب الأموال واستباحة الدماء وإخافة السبيل، ومنها ما في الطريق من أهل البدع والضلال بل وأهل الشرك من رافضي وجهمي إلى معتزلي ونحوهم، وكلهم أعداء قاتلهم الله. ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدا. ومع ذلك فنحن نرجو أن يبعث الله لهذا الدين من ينصره، وأن يجعلنا من أهله، وأن يسهل الطريق ويرفع الموانع، ونسأله أن يمن بذلك فهو القادر عليه.

ولما رأينا ما منَّ الله به عليكم من التحقيق وسعة الاطلاع، وعرفنا تمكنكم من الآلات، وكانت نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية بين أيدينا، ولنا

بهـا عناية ولكـن أفهامنا قاصرة وبضاعتنـا مزجاة من أبواب العلـم جملة، وفيها مواضع محتاجـة إلى البيـان، ولم يبلغنـا أن أحـداً تصدى لشرحها، غلب على الظن أنك تقدر على ذلك. فافعل ذلك يكن من مكاسب الأجور، وهي واصلة إليك إن شاء الله، فاجعل قِرَاها شرحها وبيان معناها، وأصلح في النية ذلـك تكن حرباً لجميـع أهل البدع، فإنها لم تبـق طائفة منهم إلا ردت عليهـا، فهـذان مقصدان من بعثهـا إليك: أحدهما: شرحها، والثاني: الاستعانة بها على الرد على أهل البدع، لأن مثلك يحتـاج إلى ذلك، لكونك في زمان الغربة وبلاد الغربة، فـإن كنت حريصاً على ذلـك فعليك بكتـاب العقل والنقل، والتسعينية لشيـخ الإســلام ابن تيميـة، وكتـاب الصواعق المرسـلة عـلى الجهميـة والمعطلـة والجيوش الإسـلامية لابن القيـم، ونحوهن مـن كتبهما فإن فيهـا الهدى والشـفاء. ولنا مقصـد رابع مهم، وهو أن هذا التفسـير العظيـم وصل إلينا في شعبان سنة سـبع وتسعين ومائتين وألف ١٢٩٧ هجرية، فنظرت فيه وفي هذا الشـهر وفي شوال، فتجهز الناس للحج ولم أتمكـن إلا مـن بعضه ومـع ذلك وقفت فيـه على مواضع تحتاج إلى تحقيق، وظننت أن لذلك سببين:

أحدهما: أنه لم يحصل منكم إمعان نظر في هذا الكتاب بعد إتمامه، والغالب على من صنف الكتب كثرة ترداده وإبقائه في يده سنين يبديه ويعيده، ويمحو ويثبت، ويبدل العبارات، حتى يغلب على ظنه الصحة غالباً، ولعل الأصحاب عاجلوك بتلقيه قبل ذلك.

والثاني: أن ظاهر الصنيع أنك أحسنت الظن ببعض المتكلمة، وأخذت من عباراتهم بعضاً بلفظه وبعضاً بمعناه، فدخل عليك شيء من ذلك ولم تمعن النظر فيها، ولهم عبارات مزخرفة فيها الداء العضال وما دخل عليك من ذلك، فنقول: إن شاء الله بحسن القصد واعتماد الحق وتحري الصدق والعدل. وهو قليل بالنسبة إلى ما وقع فيه كثير ممن صنف في التفسير وغيره. وإذا نظر السني المنصف في كثير من التفاسير وشرح الحديث وجد قلّته وما هو أكثر منه، وقد سلكتم في هذا التفسير في مواضع منه مسلك أهل التأويل، مع أنه قد وصل إلينا لكم رسالة في ذم التأويل مختصرة، وهي كافية ومطلعة على أن ما وقع في التفسير صدر من غير تأمل، وأنه من ذلك القليل. وكذلك في التفسير من مخالفة

أهـل التأويـل ما يدل عـلى ذلك. وأنا اجـترأت عليك - وإن كان مثـلي لا ينبغـي له ذلـك - لأنه غلب عـلى ظني إصغاؤك إلى التنبيه، ولأن من أخلاق أئمة الدين قبول التنبيه والمذاكرة، وعدم التكبر وإن كان القائل غير أهل، ولأنه بلغني عن بعض مـن اجتمع بك أنك تحب الاجتماع بأهل العلم، وتحرص على ذلك، وتقبل العلم ولو ممن هو دونك بكثير، فرجوت أن ذلك عنوان توفيق، جعلك الله كذلك وخيراً من ذلك...

فنسأل الله أن يلحقنا بآثار الموحدين، وأن يحشرنا في زمرة أهل السـنة والجماعة بمنِّه وكرمـه. وقد اجترأت عليك بمثل هذا الكلام نصحاً لله ورسـوله، رجاء من الله أن ينفع بك في هذا الزمان، الذي ذهب فيه العلم النافع ولم يبق إلا رسومه، وأنـا أنتظـر منك الجـواب ورد ما صـدر مني مـن الخطاب. ثـم إني لمـا رأيـت الترجمة وقد سـمي فيها بعـض مصنفاتك، وكنـت في بلاد قليلـة فيها الكتب، وقد ابتليـت بالدخول في أمـور الناس لأجل ضرورتهـم كما قيل: خلا لك الجو فبيضي واصفري. وألتمس من جنابك تفضل علينا ببلوغ السـؤول من أقضية الرسول، والروضة الندية شرح الدرر البهية، ونيل

المرام شرح آيات الأحكام. فنحن في ضرورة عظيمة إلى هذه كلها، فاجعل من صالح أعمالك معونة إخوانك ومحبيك بها، وابعث بها إلينا مأجوراً إن شاء الله تعالى، وليكن ذلك على يد الأخ أحمد بن عيسى الساكن في مكة المكرمة المشرفة، واكتب لنا تعريفاً بأحوالكم. ولعل أحداً منكم من يتلقى هذا العلم ويعتني به ويحفظه عنك، واحرص على ذلك طمعاً أن يجمع لك شرف الدنيا والآخرة، ونسأل الله أن يهب لك ذلك.

ثم اعلم أني قد بلغت السبعين، وأنا في معترك الأعمار لا آمن هجوم المنية، ولي أولاد ثمانية، منهم ثلاثة يطلبون العلم كبيرهم سعد المذكور أولاً، ويليه عبدالعزيز، وتحته عبداللطيف. ونرجو أنهم أهل الكتب وممن يعتز بها ويحفظها. وبقيتهم صغار منهم من هو في المكتب ومن دعائنا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، لا تنسنا من صالح دعائك كما هو لك مبذول، والسلام عليكم ورحمة الله

وبركاته، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم)[1] أ.هـ. ملخصاً.

العلامة العاشرة: لصلاح السريرة:

الصدق في الحديث، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانة، وتنفيذ الوعد، وتقوى الله ﷻ في الخصومة، فكل هذه الخصال تدل على صلاح في السريرة، لأن أضداد هذه الصفات إنما هي من خصال المنافقين، الذين فسدت سرائرهم، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»[2]، ويدخل في ذلك ذو الوجهين، الذي يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

ويقول ابن رجب رحمه الله تعالى: (النفاق الأصغر كله راجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، كما قال الحسن.

(١) رسالة من الشيخ العتيق للشيخ صديق حسن خان، ينبهه فيها على أخطاء وقعت له في تفسيره.

(٢) البخاري: (٣٤)، ومسلم (٥٨) واللفظ له.

obeikandl.com

وقال الحسن أيضاً: (من النفاق اختلاف القلب واللسان، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج)[1].

العلامة الحادية عشرة:

صدق التوكل على الله ﷻ، وحسن الظن به، والتبرؤ من الحول والقوة، مع فعل الأسباب المأمور بها شرعاً طاعة لله ﷻ دون التعلق بها، وإنما التعلق بخالقها ﷻ ومسبِّبها، وهذا بدوره يضفي على صاحب السريرة الصالحة الاطمئنان، وارتفاع خوف المخلوق من قلبه، لأنه يتمثل قول النبي الصالح هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

العلامة الثانية عشرة:

كثرة ذكر الله ﷻ واستغفاره، وهذا من علامة محبة العبد لربه ﷻ، لأن من علامة صدق المحبة كثرة الذكر للمحبوب، ودوام ورود ذكره على القلب.

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٣٣).

فهو علامة وسبب لصلاح السريرة فبه تصلح السريرة، وتزكو القلوب، وهو علامة على صلاح القلوب والسرائر فهو إذن علامة وسبب.

• **العلامة الثالثة عشرة: الدعوة إلى الله ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

إن من علامة صلاح القلب: الصدق في محبة الله ﷻ ومحبة دينه، وهذا يقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل، حيث لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال، وهو يرى دين الله ﷻ ينتهك ويقصى من الحياة، ومن ثم يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم، إن المؤمن الصادق الإيمان صاحب السريرة الصالحة لا يُقدِّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية.

فمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق،

وهـل بلية الديـن إلا من هؤلاء الذين إذا سـلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمـظ، ولو نوزع في بعض مـا فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسـعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ولرسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل)[1] أ.هـ.

والحاصل أنه كلما كان العبد صادقاً في إيمانه موقناً بوعد ربـه صالحـاً في سريرتـه كان مندفعـاً مضحيـاً صابراً محتسـباً في سـبيل الله ﷻ، يعظـم حرمات الله، ويغار عـلى محارم الله، وينصح لعباد الله ﷻ.

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ٤٧٦).

obeikandl.com